

أفارقة وعرب: بعض مظاهر التمازج الإفريقي العربي الإسلامي في تاريخ وحضارة سلطنة الفونج (1504-1821م)

Afro-Arabs: Some Aspects of African-Arab-Islamic Intermingling in the History and Civilization of the Funj Sultanate (1504-1821 AD).

د. عمر عبد الله حميدة
Hummeida, Omer Abdalla

قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة
الخرطوم
hummeida@hotmail.com

تاريخ الإرسال : 28-1-2025 تاريخ القبول: 30-5-2025 تاريخ النشر: 2025-6-2025
المستخلص:

تهدف هذا الورقة لشرح وتوضيح بعض من ملامح التمازج في بعديه السوداني الإفريقي أو العربي الإسلامي في دولة الفونج التي قامت بالسودان الشرقي كواحدة من الممالك الإسلامية في الفترة من 1504 – 1821م.

فمن خلال دراسة بعض النماذج التاريخية أو الحضارية أو الثقافية أو حتى في العلاقات الخارجية للسلطنة برزت العديد من الملامح الإفريقية والعربية والإسلامية والتي اسهمت في تشكيل هذه الدولة. هذا التمازج والتشكل أفضى في آخر الأمر لتكوين دولة الفونج والتي عدها الكثيرون أساس الهوية السودانية الحالية.

برز هذا التلاقح في العديد من الملامح فتأسس الدولة نفسها جاء لتحالف عربي إفريقي، وعلاقات الدولة الخارجية السياسي منها والثقافي ظل مرتبطا في مجمله مع البلدان العربية، كما أن هجرات المتصوفة ورجال الدين وادعاء النسب النبوي أو العروبي مما ساهم في هذا الرباط. ومن الجانب الآخر برز الدور الإفريقي في الكثير من الظواهر الاجتماعية والثقافية كظاهرة القتل الطقسي للملوك وأدوات الحكم والوسم على الوجوه (الشلوخ) والموسيقى وغيرها. وجميع هذه الملامح تعايشت وخلقت مجتمعا عربيا إفريقيا.

كلمات مفتاحية:

دولة الفونج، العبدلاب، القتل الطقسي، أشجار النسب، الشلوخ، الككر

Abstract:

This paper aims to explain and clarify some ethno genesis features in the Sudanese-African or Arab-Islamic Funj State, which was established in

eastern Sudan as one of the Islamic kingdoms in the period from 1504 to 1821 AD.

Through studying some historical, civilizational, cultural, or even foreign relations models of the Sultanate, many African Arab, and Islamic features that contributed to the formation of this state emerged. This blending and formation ultimately led to the formation of the Funj State, which many consider it as the basis of the current Sudanese identity

This harmony emerged in many features. The establishment of the state itself came as an Arab-African alliance, and the state's foreign relations, both political and cultural, remained linked in their entirety to the Arab countries. The migrations of Sufis, clerics, and claimants of prophetic ancestry or Arab lineage also contributed to this bond. On the other hand, the African role emerged in many social and cultural phenomena such as the phenomenon of ritual killing of kings, tools of government, branding on faces (shilukh), music, and others. All these features coexisted and created an Arab-African society.

Keywords:

Fung State, Abdallab, ritual killing, genealogical trees, Shulukh, Kakar

مقدمة:

لعل من أبرز ما يلفت نظر الدارس لسُلطنة الفونج الإسلامية في السودان (1504- 1821م) التمازج الصارخ والواضح بين المورثات المحلية السودانية الإفريقية والموروث العربي الإسلامي المستجلب لتلك السلطنة. ويزر هذا التمازج بصورة سافرة في كل مكونات السلطنة تاريخا كان أم حضارة وثقافة أو حتى علاقات خارجية. وتهدف هذا الورقة لاستجلاء وتوضيح بعض ملامح هذه التمازج في بعده السوداني الإفريقي أو العربي الإسلامي من خلال دراسة بعض النماذج التاريخية أو الحضارية والثقافية أو حتى في العلاقات الخارجية للسلطنة.

ولعل من الصعوبة بمكان أن يحيط الباحث بجميع هذه الملامح ويغطيها، فدولة مثل الفونج استمرت تحكم لما يزيد من ثلاثة قرون، حاملة في جيناتها تاريخ وحضارة سودانية قديمة تضرب بجذورها لما يزيد من ثلاثة آلاف سنة، ومن جانب آخر فقد ظل هذا التمازج مستمرا ودائما ومتخلقا في كل فترة حكمها، لهذا كله فقد اكتفى الباحث برصد بعض هذه الملامح في الجوانب التاريخية والحضارية.

تحضر أولى مظاهر هذا التمازج السوداني الإفريقي والعربي الإسلامي في عهد التأسيس الأول للسلطنة فالمعلوم أن هذه السلطنة تكونت من خلال تحالف تم بين مجموعتين قبليتين اثنتين مختلفتين هما مجموعة الفونج ممثلة للعنصر الإفريقي، والذي يُختلف في أصلهم بين الشلك وهم إحدى القبائل النيلية السودانية، أو البرنو من غرب إفريقيا، أو الحبش في شرقي إفريقيا والأصل العربي

المختلط إفريقيا والذي تبنيه هم أنفسهم في مرحلة لاحقة. أما مكون التحالف الآخر فهم مجموعة العبدلاب والذين تتفق المصادر على أنهم من أصل عربي صريح من قريش¹. رغم اختلاف المؤرخين في طبيعة هذا التحالف الذي مهد لقيام السلطنة وتاريخه وطبيعته، حيث رأى البعض أن من حمل لواء سبق في القضاء على آخر الممالك المسيحية بالسودان (مملكة علوة) هم العبدلاب الذين كانوا يحكمون السودان وادي النيل عند ظهور الفونج... وما أن استتب لهم الأمر حتى اشتبكوا مع الفونج حول حقوق المرعى والذي انتهى بهزيمة العبدلاب وقبولهم مبدأ التعاون مع الفونج²، بينما رأى آخرون بأن سقوط مملكة علوة وعاصمتها سوبا إنما حدث نتيجة لتوافق بين الفونج و العبدلاب أدى لقيام حلف بين عرب القواسمة بزعامة عبد الله جماع - سمي هكذا لتجميعه القبائل العربية للتصدي لدولة علوة المسيحية- و الفونج بقيادة عمارة دنقس على شروط سياسية أتاحت للعبدلاب قيادة جيش الغزو بمساعدة الفونج وسمحت للطرفين بحكم أراضي دولة علوة المهزومة بتقسيمات ارتضاها الطرفان³.

والذي يهمننا من هذا الأمر هو أن الظروف التاريخية في بدايات القرن السادس عشر الميلادي هيأت الظروف المناسب للمتحالفين لوراثة أراض واسعة تمتد من أعالي النيل الأزرق وحتى الشلال الثالث شمالا، واتاح هذا التحالف/ الاتفاق/ الاتحاد شكلا مكنهما من إدارة كل هذه المساحة بحيث يكون الجزء الشمالي (العربي الملمح جزئيا) تحت الحكم المباشر للعبدلاب، ويبقى الجزء الجنوبي (الزنجي الملمح) من المملكة تحت حكم الفونج المباشر، وفقا لنظام لامركزي وأن جعل الملك - من الفونج- في سنار العاصمة أعلي مكانة من حليفه من العبدلاب الذي أختار عاصمته في جزئه الشمالي بحاضرة قري. أما اختيار الملك الفونجي في سنار أو شيخ العبدلاب في قري أو حكام الولايات الآخرين من المكوك - مفردها مك - فكان شأناً محلياً لا تتدخل فيه الأطراف الأخرى سوى بالوقوف على إجراءات التنصيب التي تتم في العاصمة سنار ومباركتها.

الناظر لما أوردناه في سردنا السابق عن الحلف الفونجي العبدلابي يستشف جذور البدايات الأولى للملمحين الإفريقي العربي في تاريخ وحضارة وثقافة هذه السلطنة، فزعيم الفونج مؤسس الدولة نفسه المسمى بعمارة دنقس يحمل هذه الثنائية فأسم " عمارة" أسم عربي صريح يكمله الاسم الثاني "دنقس" وهو أسم سوداني إفريقي محض. ومن جانب آخر فقد وصف أوروبي زار سلطنة الفونج في فترة حكم عمارة دنقس وقابله بأنه "يقيم على ضفة نهر النيل، واسمه عمارة -وهو أسود اللون ويحكم شعوب سوداء وبيضاء"⁴.

إن وجود العديد من الأشراف من المنتمين لعرة الرسول ﷺ - حقيقين أو مدعين لهذا النسب الشريف - في البلاط الملكي وما ظل يجدونه من عطايا وهبات عينية وتقدير ومودة⁵ مما يؤكد من جهة أخرى الميل العربي الإسلامي للحاكم الأول للسلطنة - عمارة دنقس-، وليس غريبا وفي ظل هذا الزخم الإسلامي العربي وأمام التحديات الخارجية أن يُدعي السلطان المؤسس عمارة دنقس نفسه نسبا عربيا.

فبعد استيلاء العثمانيون على مصر عام 1517م، بدأ اهتمامهم بالناحية الجنوبية، فجعلوا يؤسسون قواعد لهم في سواكن ومصوع سنة 1520م. وخشي عمارة من هذا الامتداد العثماني، فبعث إلى الباب العالي يخبره بأن دولته إسلامية وإنه ورعيته عرب بادية لا يملكون ما يصلح لدفع الجزية للسلطان. وعزز عمارة هذه الرسالة بكتاب يحوي أنساب قبائل العرب في مملكته جمعه له السمرقندي أحد

علماء سنار. و يقال ان السلطان العثماني اقتنع بصحة ما تضمنته هذه الرسالة فعدل عن حرب سنار.⁶

أشجار النسب عبارة عن قوائم تؤرخ لنسب أسرة أو قبيلة أبا عن جد حتى تبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أو عمه العباس أو كبار الصحابة" ويهتم السودانيون خاصة العرب منهم أو المستعربون وهم من تمثلوا الثقافة العربية تمثلا كاملا، بهذه الانساب "ولعل الدافع وراء تمسك هذه المجموعات بأشجار النسب ما تبثه وتمنحه من شعور بالتميز على عراقاة أصولهم خشية أن يعدوا من المختلطين بسكان الموطن الجديد، وربما كان التمسك بها " تعبيراً لغلبة الثقافة العربية التي انتظمت السودان الشرقي منذ أواخر القرن السادس عشر"⁸، وأبرز ما ميز هذه الأشجار الاهتمام برصد وذكر الأباء دون الأمهات أو الأباء من غير العرب وبصنيعها هذا فإنها أهملت المكون السوداني الإفريقي لنسب الفرد، وساهمت في خلق تميز ثقافي ومجتمعي بل وعرقي. أما الأب الروحي لهذا النوع من أشجار النسب فهو المؤرخ الإمام السمرقندي ويبدو في رأى الكثيرين أشبه بالشخصية شبه الأسطورية.⁹

شهد القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي كما يورد كتاب الطبقات نهضة دينية كبرى أشرف على رعايتها ورفدها زعيم العبدلاب عجيب المانجلك تمثلت في مجيء العلماء والفقهاء والمتصوفة "ففي أول ملكه قدم الشيخ إبراهيم البولاد من مصر إلى ديار الشايقية، ودرّس فيها الفقه، وانتشر علم الفقه في الجزيرة. ثم بعد يسير قدم الشيخ تاج الدين البهاري من بغداد وأدخل طريق الصوفية في دار الفنج. ثم قدم الشيخ التلمساني المغربي إلى الشيخ مجد ود عيسى سوار الذهب وسلكه طريق القوم، وعلمه علوم الكلام وعلوم القرآن من روايات وتجويد ونحوه"¹⁰ ساعد على هذا الاندفاع من العلماء نحو دولة الفونج ما وجدوه من السلطة الحاكمة من عطايا وتقدير، فقد عمل السلاطين على جذب وتشجيع العلماء ورجال التصوف للهجرة إلى البلاد وذلك بمنحهم السلطة والجاه وقبلوا شفاعاتهم في المسائل المتعلقة بحقوق الدولة تجاه الافراد والتي تمنحهم حق الفصل في المنازعات بين الأهالي بتعيينهم قضاة وأعفوهم من الضرائب والاستحقاقات التي كانت للدولة عليهم. وجعلوا لهم مكانة خاصة في ديوان السلطنة في سنار بلغت ان يتم استقبال بعضهم من قبل السلاطين خارج سنار وأنزلهم في مساكن خاصة بهم، هذا بالإضافة إلى منحهم اقطاعات من الأراضي ظل امتياز ملكيتها وحيازتها أمراً باقياً يحددونه كلما اعتلى سلطان جديد عرش السلطنة و اشهدوهم على الوثائق و منحوهم الهدايا و الاعطيات.¹¹

أسهم هذا التدافع من العلماء نحو السودان في وضع اللبنة الأولى للمؤسسات الدينية وقتها والتي ساهمت في نشر الثقافة العربية الإسلامية وربطت دولة الفونج بمصادرها الاساسية في العالمين العربي والإسلامي، ونعني بالمؤسسات الدينية الإسلامية هنا، تلك التي أفرد لها المجتمع دوراً خاصاً ووظائف محددة تقوم بها في مجال الدين الإسلامي والمجالات الأخرى المرتبطة به. وتشمل المؤسسة بهذا المبني المخصص لها سواء كان مسجداً أو خلوة، كما تشمل أيضاً القائمين علي أمرها من شيوخ وأفراد فرغهم المجتمع للقيام بهذا الدور.¹²

من الصعوبة التفريق بين المؤسسات الدينية التبعدية الإسلامية والمؤسسات التعليمية في الممالك الإسلامية في السودان، فالمفردات "مسجد، مسيد، مدرسة قرآنية، خلوة، معناها مترادف في أغلب الحالات"¹³. و يبرز هذا التضارب في هذه المفردات في كتاب مثل كتاب الطبقات لابن ضيف

الله " فكلمة مسجد كانت تستخدم في كتاب الطبقات بمعناها الأصلي، وهو مكان الصلاة. ويضاف إلى هذه الوظيفة أحياناً إما تدريس القرآن فقط أو تدريس العلوم... وقد كان للمسجد وظيفة ثالثة، غير الصلاة والتدريس، فالمسجد كان مكاناً للخلوة والعزلة وتعبادات الصوفية"¹⁴.

أسهمت هذه المؤسسات والمشرفين عليها وطلابها ومناهجها في التوجه العربي الإسلامي لدولة الفونج، فالمؤسسات وأبنيتها سواء المسجد أو الخلوة أو حتى قبة الشيخ أو مزاره بعد وفاته كان سببا رئيسيا في نشأة الكثير من المدن السودانية، فحول المسجد أو الخلوة أو القبة أو المزار كان تحلق المريدين وتجمعهم والذي أسهم بدوره في نشوء الأسواق التي صارت اللبنة الأولى للمدينة السودانية ذات الطابع الإسلامي القائم والمستند على المؤسسة الدينية مع احتفاظها بالروح السودانية الإفريقية.

أما المشرفين عليها متصوفة كانوا أم فقهاء فقد أسهموا وفقا لتخصصاتهم القائمة على علوم الدين الإسلامي في بلورة وعي إسلامي متجه بكلياته نحو الاسلام والعروبة بل وربط هؤلاء الشيوخ وطلابهم هذه المؤسسات بالمؤسسات الشبيهة لها في الدول العربية والإسلامية. حيث أن الكثيرين من مؤسسي هذه المؤسسات من القادمين من الخارج السودان كالحجاز والعراق واليمن ومصر وبلاد المغرب والأندلس، فغلام بن عائد القادم من قرية الحليلة باليمن درس أحفاده المعروفين بأولاد جابر بمصر ومثلهم عبد الرحمن بن حمدتو والشيخ محمود العركي والشيخ علي ود عشيب بمصر، ومن الذين تلقوا العلم في الحجاز الشيخ عمار بن عبد الحفيظ والشيخ عبد اللطيف بن الخطيب بن عمار، واشتهر الشيخ دفع الله العركي بالعلم في الحجاز ودرّس في مقام الإمام مالك.¹⁵

ترتب على هذا أن بدأ المجتمع وقبله السلطة الحاكمة في التوجه للإسلام السني، مع التخلي تدريجيا من السمات الشعبية العالقة به التي وسمته منذ دخوله للسودان وبرز ذلك في اهتمام السلطنة بتمكين الشريعة الإسلامية وجعلها المنهج الرسمي للمعاملات في الدولة بحيث صارت الاحكام تصدر وفقا لما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة وتصدر الفتاوى على ما جاء في كتب الفقه الإسلامي. كما أعتمد التقويم الهجري وأصبحت كل المكاتبات الصادرة وخصوصاً السلطانية منها مثبتة وقائعها بالتقويم الهجري. فضلاً عن الدور المهم الذي كانت تقوم به السلطنة و المتمثل في استقبالها للحجاج الوافدين من غرب إفريقيا للسفر إلى أراضي الحجاز عبر أراضيها من خلال موانئ سواكن و عيذاب.¹⁶

من جانب، فإن كانت أشجار النسب استبطانا لنزعة تفوق اثني وعرق، فإن الإجازات العلمية الممنوحة للدارسين من خارج البلاد شكلت من جهتها نزعة نحو التفوق الثقافي المجلوب من خارج الحدود من المؤسسات الدينية التعليمية الرسمية الإسلامية والعربية كالأزهر بمصر، أو الحرمين الشريفين بالحجاز. والإجازة هي شهادة يمنحها الفقيه العالم لتلميذه الدارس عليه تؤهله للتدريس أو الافتاء بما تعلمه عنه حيث أن العادة قد جرت أن بعض الطلاب إذا حفظ كتابا في الفقه أو أصول الفقه، أو النحو أو غير ذلك من الفنون، يعرضه على مشائخ العصر فيقطع الشيخ المعروف عليه ذلك الكتاب ويختبره في مواضع، فإن مضى فيها من غير تلثم استدل على حفظه وأجازه"¹⁷، ومن أشهر من نال اجازة في دولة الفونج الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم بن أبو ملاح والذي درس وتعلم على الشيخ الأجهوري وقرأ عليه مختصر خليل ومنظومته في التوحيد وأجازه فيها بخطه"¹⁸.

بصورة عامة يمكن القول إن مظاهر اسلمة وتعريب سلطنة الفونج وما قبلها تمت عبر ثلاث مراحل ففي المرحلة الاولى جاءت وفود الدعاة والتجار المسلمين وعاشوا في غربة عن ثقافة المحيط مع اظهارهم لبعض مظاهر التدين كالصلاة وبناء المساجد وحسن التعامل، وفي المرحلة الثانية بدأ الأهالي نوع من الاختلاط مع هؤلاء الغرباء واعتنقوا الإسلام وخلطوه مع بعض عوائدهم من ديانتهم التقليدية. أما المرحلة الثالثة فبرزت فيها حركات الإصلاح والالتزام بصحيح العقيدة والذي تم من خلال الحركات الدينية الإصلاحية التجديدية ومثلها في دولة الفونج تلاميذ الولي أحمد بن إدريس وغيرهم.¹⁹

سادت الملكية المقدسة شعوب العالم القديم حيث اعتقدت بعض الشعوب في ألوهية ملوكهم وتأثير أولئك الملوك على أوضاعهم المعيشية والأمنية فقدسوهم وعبدوهم. وظلت بعض الشعوب تمارس هذه العادة حتي يومنا هذا، فمثلا لا زالت قبيلة الشلك (في دولة جنوب السودان الآن) ذات النظام القبلي شديد التمسك والتراثبية والتي هي واحدة من القبائل النيلية تمارس عادة القتل الطقسي لزعيمها الروحي (الرث) وبحسب الروايات الشفوية مارس الشلك هذه العادة منذ تأسيس مملكتهم نحو منتصف القرن السادس عشر الميلادي وحتى الوقت الراهن، فالزعيم الروحي آينق آني لور (حكم 1972-1992م) قتل طقسياً.²⁰ وقد ارتبط مفهوم الملك المقدس أو الملك الإله في تراث بعض الشعوب وبخاصة الإفريقية ارتباطاً قوياً بأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فأمن وسلامة القبيلة ونزول المطر ووفرة الغذاء وسلامة المواشي كل ذلك مرتبط بالملك ومدى قدرته على القيام بواجباته.

لهذا الأمر فلم يكن غريباً أن يُشترط توفر الصحة والنشاط والقدرة في هؤلاء الملوك لأنه ومتى ما تعرض الملك للعجز أو المرض فلا بد أن يهدد ذلك سلام القبيلة الروحي وأمنها الغذائي، فعجز الملك أو مرضه أو ضعفه يعني كارثة على حياة قبيلته ومجتمعه. غير أنهم مهما بذلوا من العناية لا يستطيعون حماية ملوكهم من التقدم في السن ومما قد يعترهم من ضعف، ولذلك فالحل الوحيد عند ظهور أي بوادر ضعف على الملك أن تحل روحه سريعاً قبل أن يصيبها الضعف في الشخص الذي سيتولى السلطة من بعده والذي ينبغي أن يكون سليماً وقوياً، ويتم ذلك بقتل الملك لتحل روحه في خلفه.

وظاهرة القتل الطقسي ظاهرة قديمة في ثقافة وتاريخ السودان فقد ذكر استرابو في حديثه عن مملكة مروي (350 ق.م – 350 م) " في مملكة مروي ومنذ أقدم العصور كان الكهنة الذين يتمتعون بأعلى المراكز الاجتماعية هم الذين يحددون ميعاد موت الملك ويقومون بتبليغه قرارهم بواسطة نذير، ثم يقومون بتعيين خليفة له".²¹

وأشار الرحالة بروس في وصفه لعادات أهل سلطنة الفونج لظاهرة القتل الطقسي للسلطان " من الظواهر المميزة لهؤلاء القوم المتوحشين أن الملك عندهم يسمح له باعتلاء العرش، على أن يسمح بإمكانية اعدامه عن طيب خاطر، إذا رأوا في استمراره في السلطة ما يتنافى ومصلحة الدولة".²² وذكر أيضاً أنه "من إحدى عوائد العبدلاب أن شيخهم كان عرضة للقتل في أي وقت، ويتم ذلك على يد أحد أبناء عمومته. فإذا قرر أحد أبناء العم قتل الشيخ يخبره بذلك ويوافق الشيخ خشية وصمه بالجبن في حالة الرفض. فيستعد الشيخ للقتل ويحلق شعر رأسه ويصلي ثم يضع سيفه أمامه ويجلس متجهاً نحو القبلة منتظراً قدوم ابن العم. ويأتي ابن العم ويطلب الإذن بالدخول، فيدخل

ويقف خلف الشيخ ويقطع رأسه دون أن يقول شيئاً، ثم يدخل زعماء القبيلة ويضعون الطاقية على رأس ابن العم رئيساً جديداً للقبيلة. وكانت هذه عادتهم منذ القدم²³. لا تقف ظاهرة قتل الملك عنده فحسب بل تتعدها في مرات كثيرة لتحسم الخلاف المتوقع بموته في سياقات أخرى، فالأمراء الذين ظلوا مرشحين للعرش من أبناء الملك المحتضر كانوا عرضة للقتل والموت أيضاً، فقد ذكر كرمب "وعندما يموت الملك في سنار فإنهم يختارون آخر خلفاً له ويفعلون ذلك بالطريقة الآتية: كل الشيوخ والنبلاء الكبار الآخرين في المملكة يجتمعون، وينتخبون واحداً من الأمراء الملكيين، المولود إما لزوجة شرعية أو محظية، ينصبونه ملكاً. وجميع الأمراء الآخرين، والذين مازالوا معزولين في القصر يقتلونهم بالسيف، وإذا هرب واحد منهم فإن الملك المنتخب الجديد وهو أخوه بالدم، ملزم بمطاردة (الأمير) الهارب وقتله. وهذا الفعل يتم حتى لا يكون هناك تمرد ضد الملك وسط الأمراء العديدين أو تقسيم للبلاد وبهذا يتم حفظ السلام في المملكة."²⁴ أما من يقوم بتنفيذ هذا القتل فمختلف فيه، فبينما ذكر البعض أنه "سيد القوم" وقد كان في زمن بروس هو خال الملك واسمه أحمد "وسيد القوم هو رئيس شؤون القصر أو رئيس الخدم... وإن من مهامه القيام بقتل الملك وأقربائه"²⁵، ويلقبه بروس نفسه في مواقع أخرى "بالجندي" وهي وظيفة تختلف عن وظيفة سيد القوم ويوضح من الوثائق الخاصة بسلطنة الفونج علو مكانة هذه الوظيفة وصاحبها. وربما نفذ هذا الأمر جنود عرفوا بجنود "لولو أو لول أو لمول" وهم الجنود المؤسسين للسلطنة وظلوا هم وابنائهم وأحفادهم من بعدهم حراس السلطنة والمحافظين على تقاليد المرعية.

بصورة عامة يمكن القول بخصوص ظاهرة القتل الطقسي عند الفونج "إنه ربما كان لأسطورة القتل الطقسي نصيب من الحقيقة، رغم ما يكتنف ذلك من غموض، ولكن انتشار التعاليم الإسلامية وغلبتها على مجتمع مملكة الفونج أضعف من غلواء ما تبقي من أثر لذلك الطقس"²⁶. في الجانب الحضاري تُبرز الثقافة المادية لدولة الفونج ما قد ذكرناه من تلاقح عربي إسلامي مع السوداني الإفريقي، ففي العلوم الاجتماعية يشير مصطلح الثقافة المادية إلى العلاقة بين الأعمال الفنية والعلاقات الاجتماعية، وتعتبر دراسة علاقة الثقافة بالواقع المادي هي العدسة التي يمكن من خلالها مناقشة الاتجاهات الاجتماعية والثقافية، وأحياناً يستخدم هذا المصطلح المؤرخون باسم التاريخ المادي والذي يعني دراسة الأشياء القديمة لفهم ثقافة معينة²⁷. وفي هذا الجانب سنستعرض بعض هذه المظاهر المادية عبر دراسة بعض أدوات السلطة في الدولة (الككر) و(الطاقية أم قرينات) أو في الآلات الموسيقية كالنقارة والنوبة، أو حتى في علامات الزينة والتجمل (كالشلوخ) لنكمل بذلك ما أوردناه بخصوص الأثر الإفريقي في دولة الفونج.

تميزت طريقة تتويج الملوك في سلطنة الفونج بطقوسية وبرتكولية ممرحلة. وأول هذه المراحل الأولى هي مرحلة الاختيار من بين المرشحين للعرش عندما يخلو بسبب الوفاة أو العزل. وفي غالبية الحالات يكون من بيت الملك ومن أقرب الأقربين للملك السابق وعملية الاختيار يقوم بها مجلس من أكبر الدولة من العائلة المالكة. وعندما يقع الاختيار تبدأ المراسيم بأن يؤخذ المنتخب إلى المحبس في حراسة جندي ومعه عذراء. وبعد نهاية فترة الاعتكاف يقوم الجندي بمرافقة الحاكم من المحبس إلى ساحة التتويج حيث يجتمع رجال الدولة والأمراء من البيت المالكة ومعهم الرعية ويقام الككر "الكريسي" تحت ظل شجرة كبيرة، وعندما يصل المنتخب يقوم الجندي بحلق شعره بعد خلع

القفطان ويتقدم أكبر رجال الدولة من البيت المالك بقفطان جديد وعباءة ويلبسهما إياه وتوضع على رأسه الطاقية ذات القرنين ويسلم إليه السيف. وبعدهما يجلس على الككر ويتقدم الوزراء ورجال الدولة والمشايخ للبيعة والتحية. ومن تقاليد التحية أن يتمنطق الزعيم بثوبه ويقبض الحاكم الجديد بيديه على يدي الزعيم وتخرج موسيقى من القرب بينما يقوم الفقهاء بقراءة الفاتحة وترتيل الأدعية²⁸، ولعل مما أوردنا يبرز التلازم ما بين الككر والطاقية أم قرينات، فالقوم الذي يرأسهم "مك" يلقبون بأنهم "أهل طاقية وككر".²⁹

يظهر "الككر" ويعرف أيضا بالككرة كأبرز مظهر من مظاهر التتويج والسلطة والحكم، وترجع جذوره إلى بدايات نشوء الدولة فيورد كاتب الشونة "ولما أرادوا الانتقال... عملوا لملكهم عنقريباً - يقصد ككراً- من شرطان ولزوجته كذلك، وحملوه حتى نزلوا بهم جبل مويه... ولما صار لهم الملك، صار لهم العنقريب أيضا عادة"³⁰. وهو مقعد خشبي منتشر. وشائع الاستعمال في إفريقيا حيث لازالت تستعمله قبائل الأشانتي بغانا وقبيلة الدينكا بجنوب السودان وغيرهما، ويعد من ضمن "الآت الملك موازياً لكرسي الملك أو العرش"³¹ ويتفاوت ارتفاعه بين قدم ونصف قدم، وأقدامه في الأغلب ستة موزعة بحيث تكون اثنتان بالأمام واثنتان بالخلف والآخرتان بالوسط، وإن وجد بعضه بأربعة أقدام. وعلى الرغم من أن الككر كان رمزاً ملكياً يستخدم للتتويج وجلس الملك إلا أنه انتقل لرجال التصوف في دولة الفونج وصاروا يستخدمونه في تتويج شيوخهم الدينين وخلفائهم، ومن ذلك ما ذكره صاحب الطبقات بأن الشيخ علي ود برى "جاءه ملوك الجان السبعة بالطاعة والانقياد وجابوا له ككر ذهب وسوط عنج".³²



(شكل 1 الككر)

والطاقية - تعرف أيضا باسم الطاقية أم قرنين وأم قرينات - شارة من شارات الملك ومكملة لزينة الحكام وقد تستعمل مجازاً بمعنى السلطة والحكم نفسه، وقد ذهب بعض المؤرخين لربطها بالطاقية التي كان يلبسها بعض حكام النوبة فهي تشبه لحد كبير غطاء الرأس لملوك الجبال المسيحيين في عهد ممالك النوبة والذين كانوا يرتدون العمامة والقرنين، وقد أخذوها هم بدورهم من حكام مروي والأصل في ذلك شبهها بقرنا الكبش وهو الإله آمون. ويشير الرحالة كايو في مذكراته إلى أن الملك نمري شندي كان يرتدي الطاقية أم قرينات³³ ومثلها مثل الككر فقد استعيرت للشيوخ والمتصوفة - ولاسيما أتباع الطريقة القادرية - والطاقية ذات شكلين "شكل بقرنين بأعلى الطاقية على شكل قرن الكبش، وشكل بحددين بأسفلها ليغطي الأذنين".³⁴



شكل 2 (الطاقية أم قربينات)

يورد محقق كتاب الطبقات في شرحه للآلة الموسيقية المعروفة بالنقارة بأنها " طبله كبيرة جداً تصنع من النحاس أو الفخار وتجلد بجلد ثور وتقرع في المناسبات الهامة كال دعوة لحرب أو لموت كبير... وفي بعض مناطق الجزيرة تشير إلى طبل صغير يضرب في حلقات الذكر".³⁵ ويصنف علم الموسيقى النقارة ضمن المجلدات، وعلى الرغم من أن كل الثقافات الموسيقية حول العالم عرفت النقارات غير أن الثقافات الموسيقية الإفريقية أكثر استخداماً لها " حيث تتوفر عناصر الثقافة المادية من أخشاب وجلود حيوانات مختلفة في هذه البيئة، وهي مواد ضرورية لصنع مثل هذه الآلات".³⁶

أما النوبة فهي آلة موسيقية تصنع من أسطوانة خشبية ويتم شد الجلد على طرفيها بعدد من الحبال أو القماش المفتول " وتستخدم النوبة في مصاحبة المدائح النبوية وإقامة حلقات الذكر ويتوسط الشخص الذي يقرع عليها عادة الحلقة وقد يدور في داخلها ويصاحبه في ذلك أشخاص يقرعون على الكؤسات والطمبل والمثلث".³⁷ وتبدو المفارقة العجيبة في الاستخدام الجديد لهاتين الآلتين الموسيقيتين وغيرهما في دولة الفونج، فعلى الرغم من انهما كانتا في الزمن السابق لدولة الفونج تستخدمان للغناء والرقص والإعلان وغيره، إلا أن المتصوفة حولوهما لتكونا أداتين للدعوة الإسلامية "فليس مهماً أن كانت الطرق الصوفية لا تطلق على هكذا ممارسة مسمى موسيقى ... ولكن الناتج النهائي لهذه الممارسة الصوفية ساعد الشعراء الذين يكتبون نصوص الأغاني، وكذا المؤدين فحصلوا على ذخيرة لغوية ولحنية ثرة انعكست إيجاباً... ومكنت هذه الممارسات الصوفية في ذات الوقت من جذب أكبر عدد ممكن من المريدين والأتباع حول المشائخ ورجال الصوفية، مما ساعد انتشار الإسلام في هذه الربوع بوتيرة متسارعة قد لا تحدث لولا توفر هذا العامل الجاذب والساحر والفعال".³⁸



شكل 3 (النوبة)

يلقب الملك الفونجي الذي حكم في الفترة (1724-1762م) بلقب "بادي أبو شلوخ"، ويصفه كاتب الشونة بأنه آخر ملوك الفونج أصحاب الشوكة³⁹، أما مفردة الشلوخ التي لُقب بسببها هذا الملك فتعبر يستخدمه السودانيون "للدلالة على الخطوط المرسومة على الحدود من أثر الفصد بالموسى"⁴⁰، وهذه الشلوخ التي توسم بها الحدود ظلت تستخدم في السودان منذ القدم على الأرجح، إلا أنه وبمجيء العرب للسودان، وظهور ونشؤ الكيانات القبلية والكيانات السياسية القائمة عليها بقيام دولة الفونج، ومع توسع وامتداد التنافس القبلي، استخدمت المجموعات القبلية هذه الشلوخ كعلامات مميزة وفارقة لها عن غيرها من المجموعات، ثم وفي مرحلة لاحقة صارت تحمل مدلولات جمالية عند عامة الناس، أو مدلولات دينية حيث صار بعض أتباع الطرق الصوفية والدينية يرسمون شلوخا مشابهة لما في حدود زعمائهم وشيوخهم الروحيين الدينيين، فمن المعروف أن أول من أقترن اسمه بفكرة الشلوخ لدوافع دينية روحية هو الشيخ إدريس ود الأرياب الذي أدخل الطريقة القادرية في منطقة العيلفون على النيل الأزرق⁴¹، وكذلك قد تستخدم هذه الشلوخ لأسباب سحرية حيث تستخدم أحيانا وتتخذ للتخلص من مفعول السحر وطرد الأرواح، بل وقد يتخذ بعض المسلمين شلخاً على صورة الصليب لهذا الهدف أيضا.



الشكل 4 (الشلوخ)

نخلص إلى أن دولة الفونج شكلت بوتقة انصهار مزجت بين جميع العناصر السودانية والإفريقية والعربية والإسلامية و خلقت مجتمعا متعايشا متسامحا متقبل للآخر، ومن جانب آخر فإن العديد من هذه الموروثات التاريخية المعنوي منها والمادي لايزال يشكل بعض أسس الهوية السودانية.

المصادر والمراجع

1. محيي الدين، مجد صالح، مشيخة العبدلاب وأثرها في حياة السودان السياسية (910-1236هـ، 1504-1821م) الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 1972، ص 108.
2. حسن، يوسف فضل، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي 1450-1821م، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 1983م، ص 39.
3. محيي الدين، مرجع سابق، ص 106.
- 4..Hilleson.S,David Reubeni an Early Visitor to Sennar, SNR,Vol. 16,part 1,1933 ,pp55-66.
- 5.Ibid
6. شقير، نعم، تاريخ السودان، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 2014م، ص 84.
7. حسن، يوسف فضل، ملامح من مصادر تاريخ مملكة سنار والسلطنات الإسلامية في وادي النيل 1450-1850م، ورقة نشرت ضمن الأوراق المقدمة مؤتمر سنار: المدينة- الدولة- الحضارة، الخرطوم، مايو 2016، ص 8 نفسه.
- 9.Mac Michael, H. A, A History of the Arabs in the Sudan, London: Frank Cass& Com. Ltd. 1967,Vol 2, p6-7
10. أحمد بن الحاج بن علي "كاتب الشونة"، تاريخ ملوك سنار والحكم التركي المصري في السودان (910-1288 هـ / 1504-1872 م)، تحقيق حسن، يوسف فضل، الخرطوم، 2018م، ص 48.
11. أنظر للمزيد: إبراهيم، عبد الله علي، الصراع بين المهدي والعلماء، شعبة أبحاث السودان، جامعة الخرطوم، الخرطوم، 1968م، ص 2 وما بعدها.
12. حميدة، عمر عبد الله، تاريخ الأوقاف الإسلامية في السودان، سلسلة كتاب سنار (24)، الخرطوم، شركة مطابع السودان للعملة، 2017م، ص 91.
13. عبد المجيد، عبد العزيز أمين، التربية في السودان والأسس التي قامت عليها، دار كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014م، ص ص 109- 115
14. نفسه
15. الحاج، المعتصم أحمد، الخلاوي في السودان نظمها ورسومها، سلسلة كتاب سنار (19)، الخرطوم، شركة مطابع السودان للعملة، 2017م، ص 188، ولمعرفة تراجم هؤلاء العلماء يرجع: لابن ضيف الله، مجد النور، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، تحقيق حسن، يوسف فضل، ط 4، دار التأليف والترجمة والنشر جامعة الخرطوم، الخرطوم، 1972م
16. الوسيلة، الفاتح بشير، انتشار الاسلام في مملكة الفونج ودوره في تعزيز علاقتها الخارجية، ورقة نشرت ضمن الأوراق المقدمة في مؤتمر سنار: المدينة- الدولة- الحضارة، مرجع سابق، ص 216
17. عبد المجيد، عبد العزيز أمين، مرجع سابق، ص 293
18. ابن ضيف الله، مجد النور، مرجع سابق، ص 257
19. للمزيد أنظر: كرار، علي صالح، الطريقة الإدريسية في السودان، دار الجيل، بيروت، 1993م، ص ص 46- 54.
20. عبد الجليل، محاسن يوسف، القتل الطقسي لرت الشلك: مقارنة تحليلية لمركزية التصورات المرتبطة بالموت في الثقافة السودانية، في: مجموعة مؤلفين، التاريخ الشفوي: مقاربات في الحقل الاجتماعي الأنثروبولوجي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت 2015م، ص 465

21. Strabo. The Geography of Strabo, With an English Translation by Horace Leonard Jones (London: Heinemann). New York: Putnam, 1917-1932). p. xvii.
22. Bruce, J. Travels to Discover the Sources of the Nile, Edinburgh, 1804-5. 2nd edition, Vol. 6. pp. 460
23. MacMichael, op. cit., Vol. 2. p. 333
24. Crowford, O.G.S, The Fung Kingdom of Sennar, John Bellows Ltd, Gloucester, 1951, p. 323
25. Bruce, op. cit. p. 460
26. حسن، يوسف فضل، القتل الطقسي عند الفونج، مجلة الدراسات السودانية، العدد الأول، مجلد رقم 2، ص 47
27. مادة الثقافة المادية، موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية.
28. عبد الجليل، الشاطر بصلي، معالم تاريخ السودان وادي النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر، مكتبة الشريف، الخرطوم، 2009، ص 136
29. شقير، مرجع سابق، ص 111
30. أحمد بن الحاج "كاتب الشونة"، مرجع سابق، ص 52
31. أبو سليم، محمد إبراهيم، أدوات الحكم والولاية في السودان، دار الجيل، بيروت، 1992م، ص 23
32. ابن ضيف الله، محمد النور، مرجع سابق، ص 294
33. Crowford, op. cit. p. 325
34. أبو سليم، مرجع سابق، ص 56.
35. ابن ضيف الله، محمد النور، مرجع سابق، ص 240، وسوط العننج سوط صنع من جلد فرس النهر.
36. الضو، علي، الموسيقى في كتاب الطبقات، ورقة نشرت ضمن الأوراق المقدمة في مؤتمر كتاب طبقات ود ضيف الله، الخرطوم، 2015م، الخرطوم، 2015، ص 22
37. محمد، عبد الله و الضو، علي، الآلات الموسيقية التقليدية في السودان، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية جامعة الخرطوم، الخرطوم، 1985م، ص 36
38. الضو، علي، الموسيقى في كتاب الطبقات، في مؤتمر كتاب طبقات، مرجع سابق، ص 34
39. أحمد بن الحاج "كاتب الشونة"، مرجع سابق، ص 88
40. حسن، يوسف فضل، الشلوخ ووظيفتها في السودان وادي النيل، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، الخرطوم، 1976، ص 9.
41. المرجع السابق، ص 63

المراجع:

1. إبراهيم، عبد الله علي، الصراع بين المهدي والعلماء، شعبة أبحاث السودان، جامعة الخرطوم، الخرطوم، 1968م.
2. أبو سليم، محمد إبراهيم، أدوات الحكم والولاية في السودان، دار الجيل، بيروت، 1992م.
3. أحمد بن الحاج بن علي "كاتب الشونة"، تاريخ ملوك سنار والحكم التركي المصري في السودان (910-1288 هـ/ 1504-1872 م)، تحقيق حسن، يوسف فضل، الخرطوم، 2018م.
4. الحاج، المعتصم أحمد، الخلاوي في السودان نظمها ورسومها، سلسلة كتاب سنار (19)، الخرطوم، شركة مطابع السودان للعملة، 2017م.
5. حسن، يوسف فضل، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي 1450-1821م، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 1983م.
6. حسن، يوسف فضل، ملامح من مصادر تاريخ مملكة سنار والسلطنات الإسلامية في وادي النيل 1450-1850م، ورقة نشرت ضمن الأوراق المقدمة مؤتمر سنار: المدينة- الدولة- الحضارة، الخرطوم، مايو 2016.

7. حميدة، عمر عبد الله، تاريخ الأوقاف الإسلامية في السودان، سلسلة كتاب سنار (24)، الخرطوم، شركة مطابع السودان للعملة، 2017م.
8. شقير، نعوم، تاريخ السودان، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 2014م.
9. الضو، علي، الموسيقى في كتاب الطبقات، ورقة نشرت ضمن الأوراق المقدمة في مؤتمر كتاب طبقات ود ضيف الله، الخرطوم، 2015م.
10. عبد الجليل، الشاطر بصيلي، معالم تاريخ سودان وادي النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر، مكتبة الشريف، الخرطوم، 2009.
11. عبد المجيد، عبد العزيز أمين، التربية في السودان والأسس التي قامت عليها، دار كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014م.
12. كرار، علي صالح، الطريقة الإدريسية في السودان، دار الجيل، بيروت، 1993م.
13. مادة الثقافة المادية، موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية.
14. مجلة الدراسات السودانية، العدد الأول، مجلد رقم 2.
15. مجموعة مؤلفين، التاريخ الشفوي: مقاربات في الحقل الاجتماعي الأنثروبولوجي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت 2015م.
16. مجد، عبد الله والضو، علي، الآلات الموسيقية التقليدية في السودان، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية جامعة الخرطوم، الخرطوم، 1985م.
17. محي الدين، مجد صالح، مشيخة العبدلاب وأثرها في حياة السودان السياسية (910-1236هـ، 1504-1821م) الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 1972.
18. الوسيلة، الفاتح بشير، انتشار الإسلام في مملكة الفونج ودوره في تعزيز علاقتها الخارجية، ورقة نشرت ضمن الأوراق المقدمة في مؤتمر سنار: المدينة- الدولة- الحضارة.

19. Bruce, J. Travels to Discover the Sources of the Nile, Edinburgh, 1804, 2nd edition, Vol. 6.

20. Crawford, O. G. S., The Fung Kingdom of Sennar, John Bellows Ltd, Gloucester, 1951

21. Hilleson, S., David Reubeni an Early Visitor to Sennar, SNR, Vol. 16, part 1, 1933.

22. Mac Michael, H. A., A History of the Arabs in the Sudan, London: Frank Cass & Co. Ltd. 1967, Vol 2.

Strabo. The Geography of Strabo, With an English Translation by Horace Leonard Jones (London: Heinemann). New York: Putnam, 1917-1932).

